الباب الأول

بَرْزَوَيْهِ
ترجمة بُزُرْجُمهْرَ بنِ البَخْتَكَانِ

قالَ بَرْزَوَيْه بن أزْهَرَ رأْسُ أطبَّاءِ فارِسَ وهوَ الذي تولَّى ٱنْتِساخَ هذا الكتابِ وترْجَمَهُ منْ كتُبِ الهندِ، وقد مضَى ذِكْرُ ذلكَ منْ قبْلُ: إن أبي كان منَ المُقاتِلَةِ وكانتْ أُمّي منْ عُظماءِ بُيُوتِ الزَّمازِمةِ[1] وكانَ مَنْشئي في نِعمةٍ كاملةٍ وكنتُ أكْرَمَ ولَدِ أبَوَيَّ عليهما وكانَا بي أشَدَّ احْتِفَالاً منْ دُونِ إخوَتي، حتى إذَا بلَغْتُ سَبْعَ سِنين أسلَمانِي إلى المؤَدِّبِ فلمّا حَذَقْتُ الكتابَةَ شكَرْتُ أبَوَيَّ ونظَرْتُ في العلَمِ فكانَ أوَّلَ ما ابْتدَأْتُ بهِ وحَرَصْتُ عليهِ علمُ الطّبِّ لأَني كنتُ عرَفْتُ فَضلَهُ، فأقَمْتُ في تَعلُّمِهِ سبْعَ سِنينَ وكلَّما ازْدَدْتُ منه عِلماً ازْدَدْتُ فيهِ حِرْصاً ولهُ اتّباعاً.

فلمّا همَّتْ نَفسي بمدَاواةِ المَرْضَى وعزَمْتُ على ذلكَ، آمَرْتُ[2] نفسِي ثمَّ خيَّرْتُها بينَ الأُمُورِ الأربعة التي يَطلُبُها النّاسُ وفيها يَرْغَبُونَ ولها يسعَوْنَ فقلْتُ: أيَّ هذهِ الخلالِ أبْتغِي في عِلْمِي وأيُّها أحْرَى بي فأُدركَ منهُ حاجتِي، ألَمالُ أمِ الذِّكْرُ أمِ اللذَّاتُ أمِ الآخرَةُ.

وكنتُ وجدْتُ في كتُبِ الطِّبِّ أنَّ أفضلَ الأطبَّاءِ مَنْ واظَبَ على طبِّهِ لا يَبْتغي إلاَّ أجرَ الآخرَةِ، فرأيْتُ أنْ أطلُبَ الاشْتِغالَ بالطّبِّ ابْتغاءَ الآخرةِ لئلاَّ أكُونَ كالتَّاجرِ الذي باعَ ياقُوتةً ثمينةً كانَ يُصِيبُ بثمَنِها غِنَى الدَّهْرِ بخَرَزَةٍ

(١) الزمازمة: عظماء المجوس.

(٢) آمرت نفسي: شاورتها.

لا تُساوِي شيئاً، معَ أني قدْ وجَدْتُ في كتُبِ الأوَّلينَ أنَّ الطَّبيبَ الذي يَبتَغي بطِبِّهِ أجْرَ الآخرَةِ لا يمنَعُهُ ذلكَ حظَّهُ منَ الدُّنْيا وأنَّ مَثَلَهُ مثَلُ المزارِعِ الذي يبذُرُ حَبَّهُ في الأرضِ ويَعْمُرُها ابْتغاءَ الزَّرْعِ لا ابْتغاءَ العُشْبِ ثُم هيَ لا محالةَ نابتٌ فيها ألْوانُ العُشْبِ معَ يانِعِ الزَّرْعِ فأقْبلتُ على مُداواةِ المَرْضَى ابْتغاءَ أجْرِ الآخرةِ، فلمْ أدَعْ مريضاً أرْجُو له البُرْء وآخَرَ لا أرْجُو لهُ ذلكَ إلا أني أطمَع أنْ يَخِفَّ عنهُ بعضُ المرَضِ إلا بالَغْتُ في مُداواتِه ما أمكَنني بالقيامِ عليهِ بنفْسي، ومَنْ لمْ أقْدِرْ على القيامِ عليهِ وصَفْتُ لهُ ما يَصْلُحُ وأعطَيتُهُ منَ الدَّواءِ ما يَتَعالَجُ به، ولم أُردْ ممنْ فعلْتُ معهُ ذلك جزاءً ولا مُكافأةً، ولم أغْبِطْ أحداً من نُظَرائي الذينَ همْ دُوني في العلمِ وفَوْقِي في الجاهِ والمَالِ وغيرهما ممَّا لا يعُود بصلاحٍ ولا حُسْنِ سيرَةٍ قولاً ولا عمَلاً.

ولمَّا تَاقَتْ نفْسي إلى غِشْيانِهم[١] وتمنَّتْ مَنازلَهمْ أثْبَتُّ لَها الخُصومة وقلتُ لها: يا نَفْسُ! أمَا تَعرِفينَ نَفْعَكِ منْ ضَرَرِكِ؟ ألا تَنتهينَ عنْ طلَبِ مالاَ ينالهُ أحَدٌ إلاَّ قَلَّ انتِفاعُهُ به وكَثُرَ عَناؤُهُ فيهِ واشتَدَّتِ المؤونَةُ[٢] عليهِ وعظُمَتِ المَشَقَّةُ لدَيْهِ بعدَ فِراقِه؟ يا نَفْس! أمَا تَذْكُرينَ ما بعد هذهِ الدَّارِ فيُنْسيكِ ما تَشْرَهينَ إليهِ[٣] منها! ألاَ تَستحِينَ منْ مُشارَكةِ الفُجَّارِ في حُبِّ هذهِ العاجلةِ الْفانِيَةِ التي مَنْ كانَ في يدِه منها شيءٌ فليسَ لهُ وليسَ بِباقٍ عليهِ فلا يألَفُها إلاَّ المغرُورُونَ الجاهلونَ؟ يا نَفْسُ! انْظري في أمرِكِ وانْصَرِفي عنْ هذا السَّفَهِ[٤] وأقْبِلي بقُوَّتِكِ وسَعِيكِ على تقدِيم الخير وإيّاكِ والشَّرَّ واذْكُري أنَّ هذا الجَسَدَ موجودٌ لآفاتٍ وأنهُ ممْلُوءٌ أخلاَطاً فاسِدَةً قذِرَةً مُتَعادِيةٍ مُتغالبَةً تَعقدها الحياةُ والحياةُ إلى نَفادٍ كالصنمِ المُفصَّلةِ أعضاؤُهُ إذا رُكِّبَتْ ووُضِعَتْ يَجمعُها مسْمارٌ واحدٌ يشد بعضه بعضاً فإذا أُخِذَ ذلكَ المِسْمارُ تساقَطت تلكَ

(١) غِشيانهم: إتيانهم.
(٢) المؤونة: الثقل والشدة.
(٣) تشرهين: تحرصين.
(٤) السفه: نقص العقل.

الأوْصالُ. يا نفْسُ! لا تَغترّي بصُحبة أحِبّائِكِ وأصحابك ولا تَحرصِي على ذلكَ كلَّ الحِرصِ فإنَّ صُحبتَهمْ على ما فيها منَ السُّرُورِ كثيرَةُ المَؤونةِ وعاقبةُ ذلكَ الفِراقُ، ومَثَلُها مثَلُ المِغْرَفةِ التي تُستعمَلُ في جِدَّتِها لِسُخونةِ المَرَقِ، فإذا انكسَرَتْ صارت وَقُوداً. يا نفس! لا يَحمِلَنَّكِ أهلُكِ وأقاربُكِ على جَمْعِ ما تَهْلِكينَ فيهِ إرادةَ صِلَتِهِمْ فإذا أنتَ كالدُّخْنَةِ الأرجِةِ[1] التي تحترقُ ويذْهَبُ آخرُونَ بريحِها، يا نفْس! لا تَرْكَني إلى هذهِ الدَّارِ الفانيةِ ولا تَغترّي بها طَمَعاً في البقاءِ والمنزِلة التي ينظُرُ إليْها أهلُها، فكأيٍّ[2] ممنْ لا يُبْصِرُ صِغَرَ ما يَستعْظِمُ وحقارتَه حتى يُفارِقَهُ كشَعْرِ الرَّأسِ الذي يَخْدُمُهُ صاحبُهُ ويُكرِمُهُ ما دامَ على رأسِهِ فإذا فارقَ رأسَهُ اسْتقذرَهُ ورفَضَهُ. يا نفْسُ! لا تَمَلي منْ عِيادَةِ المَرْضى ومُدَاواتِهِمْ واعْتبري كيفَ يَجْهَدُ الرَّجُلُ أنْ يُفرِّجَ عنْ مَضِيمٍ واحدٍ كُرْبةً واحدةً، ويَستنقِذَهُ منها رَجاءَ الأجْرِ، فكيْفَ بالطَّبيبِ الذي يَفْعَلُ كثيراً منْ ذلكَ معَ كثيرينَ، إن هذا لَخليقٌ أنْ يَعْظُمَ رَجاؤهُ ويُوثَقُ لهُ بحُسْنِ الثَّوابِ. يا نفسُ! لا يَبْعُدْ عنكِ أمْرُ الآخرَةِ فتَميلي إلى الْعاجلةِ في ٱسْتِعْجالِ القليلِ وبَيْعِ الكثيرِ بالْيَسير... كالتَّاجرِ الذي كانَ لهُ مِلءُ بيْتٍ منْ الصَّنْدَلِ[3] فقالَ: إنْ بعْتُهُ وزْناً طالَ عليَّ فباعَهُ جُزَافاً[4] بأبْخَسِ الثَّمَنِ، وقدْ وجدْت آراءَ النّاسِ مختلفة وأهْواءَهُمْ مُتباينةً[5] وكلٌّ على كلٍّ رادٌّ... ولهُ عدُوٌّ ومُغتابٌ ولقوْلهِ مُخالفٌ.

[حكاية المصدقِّ المخدوع]

فلمَّا رأيتُ ذلكَ لم أجِدْ إلى مُتابعةِ أحدٍ منهمْ سبيلاً وعرَفْت أني إنْ

(١) الدخنة: الذريرة. والأرجة: الرائحة الطيبة.

(٢) فكأي: أي فكم.

(٣) الصندل: حب طيب الرائحة.

(٤) الجزاف: بيع الشيء لا يعلم كيله ولا وزنه.

(٥) متباينة: متباعدة.

صَدَّقْتُ أحداً منهمْ لا عِلَم لي بحالهِ كنتُ في ذلكَ كالمُصَدِّقِ المخدوع الذي زَعَمُوا في شأنهِ أنَّ سارِقاً علاَ ظهْرَ بيتِ رجُلٍ منَ الأغنياءِ وكان معهُ جماعةٌ منْ أصْحابهِ فاسْتيقَظَ صاحِبُ المنزِلِ منْ حرَكةِ أقدَامِهِمْ فأيْقظَ امْرَأتَهُ فأعلَمَها بذلكَ وقال لها: رويْداً[1] إني لأحْسَبُ اللُّصُوصَ علُوا البيت، فأيْقظِيني بصوْتٍ يَسمعُهُ اللُّصوصُ وقُولِي ألاَ تُخبِرُني أيُّها الرَّجُلُ عنْ أموالِكَ هذهِ الكثيرَةِ وكنوزِكَ العظيمةِ؛ فإذا نَهيتُكِ فألِحّي عليَّ في السُّؤَالِ واستَحْلِفِيني حتى أقولَ لكِ. ففعَلَتِ المرأةُ ذلكَ وسألتْهُ كما أمرَها وأنْصتَتِ اللُّصُوصُ إلى سَماعِ قوْلِهما، فقالَ لها الرَّجُلُ: أيتُها المرأةُ قدْ ساقَكِ القَدَرُ إلى رِزْق واسِعٍ ومالٍ كثيرٍ فكلُي واسكتي ولا تَسألِي عنْ أمْرٍ إنْ أخبَرْتُكِ بهِ لمْ آمَنْ أنْ يَسمَعَهُ أحدٌ فيكونَ في ذلِكَ ما أكْرَهُ وتَكْرَهينَ. فقالتِ المرأةُ: أخبِرْني أيُّها الرَّجلُ فلَعَمْرِي[2] ما بِقُرْبِنا أحدٌ يَسْمَعُ كلاَمَنا.

فقالَ لها: فإني مُخبِرُكَ أني لم أجمَعْ هذِهِ الأموالَ إلاَّ منَ السَّرِقَةِ. قالتْ: وكيفَ كانَ ذلكَ وما كنتَ تصْنَعُ. قال: ذلكَ لِعِلمٍ أصَبتُهُ في السَّرِقَةِ، وكانَ الأمْرُ عليَّ يَسيراً وأنَا آمِنٌ من أنْ يتَّهمَني أحدٌ أو يَرتَابَ بي. قالتْ: فاذْكُرْ لي ذلكَ قال: كنتُ أذْهَبُ في اللَّيْلةِ المُقمِرَةِ أنا وأصْحابي حتى أعْلُوَ دارَ بعضِ الأغْنياءِ مِثلنا فأنتهِي إلى الكُوَّةِ[3] التي يَدْخُلُ منها الضَّوْءُ، فأرْقِي بهذهِ الرُّقْيَةِ وهيَ شَوْلَمْ سبْعَ مرَّاتٍ وأعْتنِقُ الضوْءَ فلا يُحسُّ بوُقُوعي أحدٌ فلا أدَعُ مالاً ولا مَتاعاً إلاَّ أخذْتُهُ، ثم أرْقِي بتلكَ الرُّقيَةَ سبْعَ مرَّاتٍ وأعتنِقُ الضَّوْءَ فيَجذبُني فأصعَدُ إلى أصْحابي فنَمْضِي سالمينَ آمنينَ.

فلمّا سمِعَ اللُّصُوصُ ذلكَ قالوا: قدْ ظَفِرْنا اللّيلةَ بما نُريدُ منَ المالِ. ثمّ إنهمْ أطالُوا المُكْثَ حتى ظَنُّوا أنَّ صاحِبَ الدَّارِ وزوجتَهُ قدْ هَجَعا فقام

(١) رويداً: مهلاً.
(٢) لعمري: قسماً بعمري.
(٣) الكُوَّة: الخرق في الحائط.

قائدُهُمْ إلى مَدْخَلِ الضّوْءِ وقال: شَوْلَمْ شَوْلَمْ سبْعَ مَرَّاتٍ ثمَّ اعْتَنقَ الضّوْءَ لِيَنزِل إلى أرْضِ المنزِلِ فوقَعَ على أُمّ رأسهِ مُنَكَّساً[١] فوثَبَ إليهِ الرّجُلُ بِهِراوَتِهِ، وقالَ لهُ: مَنْ أنْتَ؟ قال: أنا السَّارقُ المُصَدِّقُ المَخْدُوعُ المُغترُّ بما لا يكُونُ أبداً، وهذهِ ثَمَرَةُ التَّصْدِيقِ.

فلمَّا تحرَّزْتُ مِنْ تصدِيقِ ما لاَ يكُونُ ولم آمَنْ إنْ صدَّقْتُهُ أن يُوقِعني في تَهْلُكَةٍ إلى البَحْثِ عنِ الأدْيَانِ والتماسِ العدْلِ منها فلَمْ أجدْ عندَ أحدٍ مِمَّنْ كلَّمتُهُ جواباً فيما سألتُهُ عنه فيها، ولم أرَ فيما كلَّمُوني بهِ شيْئاً يَحِقُّ لِي في عَقْلي أن أُصَدِّقَ بهِ ولا أنْ أتَّبِعَهُ، فقلتُ لمَّا لَمْ أجد ثِقَةً آخُذُ منهُ فالرَّأْيُ أن ألزَمَ دِينَ آبائي وأجْدَادِي الذي وجَدْتُهمْ عليه وهمَمْتُ بذلكَ، ثم التمستُ لِنَفسي مَخرَجاً فقلتُ إنْ كانَ مَنْ يَفْعَلُ هذا مَعذُوراً فإنَّ الذي يجدُ أباهُ ساحراً ويجري عَلَى مثالِهِ يكونُ غيرَ مَلُومٍ معَ أشبَاهِ ذلكَ ممَّا لا يحتَمِلُهُ العقْلُ، وذكَرْتُ في ذلكَ قولَ رجلٍ كانَ فاحِشَ الأكْلِ فعُوتِبَ في ذلك فقالَ: كذلكَ كانَ أكْلُ أبي وجَدِّي. فلمَّا ذَهبْتُ ألتمِسُ العُذْرَ لِنفسي في لزُوم دِينِ الآباءِ والأجْدَادِ لَمْ أجدْ لها على الثُّبُوتِ علي دينِ الآباءِ طاقةً، بَلْ وجدْتُهَا تريدُ أن تَتَفَرَّغَ لِلْبَحْثِ عن الأديانِ والمسألةِ عنها ولِلنَّظَرِ فيها، فهَجَسَ[٢] في قلبي وخطرَ على بالِي قُرْبُ الأجلِ وسرعَةِ انقطاعِ الدُّنْيا واعتِبَاطِ[٣] أهلِها وتخَرُّمِ[٤] الدَّهْرِ حياتُهمْ، ففكَّرْتُ في ذلكَ وقلتُ: أمَّا أنا فلعلّي قد قَرُبَ أجلِي وحانَتْ نُقْلَتِي[٥] وقد كنتُ أعمَلُ أموراً محْمُودةً أرجُو أن تكونَ أصلحَ الأعمالِ. ولعلَّ تَرَدُّدِي شغلني عنْ خيْرٍ كُنْتُ أعْمَلُهُ فيكونُ أجَلِي دونَ ما تطْمَحُ إليهِ نفسي

(١) منكساً: مقلوباً.
(٢) هجس: خطر لي.
(٣) الاعتباط: الهلاك بغتة.
(٤) تخرم الدهر حياتهم: استأصلهم.
(٥) النقلة: الموت.

ويَطلبُه أَمَلِي. ويصيبُني ما أصابَ الرَّجُلَ الذي زعموا أَنَّهُ تَوَاطَأ[١] معَ خادم في بيْتٍ لأحدِ الأغنياءِ على أن يأتيَ البيْتَ في كلّ لَيْلَةٍ يغيبُ أهله فيَجمعَ لهُ الخادمُ ممَّا في البيْتِ فيَذْهَبَ بهِ ويَبِيعَهُ ويتشاطَرَا ثمنَهُ[٢]. فاتّفَق ذاتَ ليْلةٍ أن غاب أهلُ البيتِ وَبَقِيَ الخادِمُ وحْدَهُ فأنفَذَ فأخبرَ صاحبَهُ فأقبَلَ حتى دخلَ البيتَ وأخذَا في الجمْعِ ممّا فيه، وبينا هما يجمَعَانه إذْ قُرِعَ البابُ. وكانَ لِلبيْتِ بابٌ آخرُ لَمْ يكُن يَعلمُهُ الرَّجُلُ وكانَ ذلكَ الباب عند جُبّ الماءِ فقالَ الخادمُ للرَّجُلْ على عَجَلٍ منهُ وخيفَةٍ: بادِرِ اخرُج منَ البابِ الذِي عِنْدَ جُبِّ الماء. وأشارَ لهُ إلى موضعِهِ. فانطلَقَ الرجلُ إلى ذلكَ المكانِ فوجدَ البابَ ولكنْ لَمْ يَجِدْ جُبَّ الماء فرجعَ إليه وقال لهُ: أمَّا البابُ فوجدتُهُ وأمَّا الجُبُّ فَلَمْ أجِدْهُ. فقالَ لهُ: أيُّهَا المائقُ[٣] وما تصنعُ بالجُبّ أنا دَلَلْتُكَ به لتعرِفَ البابَ فإذْ قدْ عرفتَهُ فاذْهَبْ عاجِلاً.

فقالَ لهُ: لِمَ ذَكَرْتَ الجُبَّ ولَيْسَ هُوَ هُناكَ. فقال لهُ: ويْحكَ أيُّهَا الأحمقُ انْجُ بِنَفْسكَ ودَعْ عنْكَ الحَمَقَ والتردُّدَ فقالَ لهُ: كيْفَ أمْضِي وقدْ خَلطت عليَّ وذكَرْتَ الجُبَّ وليسَ هُناكَ... فلمْ يزَلْ على مثْلَ هذه الحالِ حتى دخلَ ربُّ البيتِ فأخذَهُ وأوْجعَهُ ضَرْباً ورفَعَهُ إلى السُّلْطانَ.

فلما خِفْتُ منَ الترَدُّدِ رأيتُ ألاَّ أتعرَّضَ لِما أتخَوَّفُ منهُ المكرُوهَ وأنْ أقْتصِرَ على عمَلٍ تَشهَدُ الأنفُسُ أنه يوافِقُ كلَّ الأدْيانِ فكفَفْتُ يَدِي عنِ الضَّرْبِ والقَتْلِ والسَّرِقَةِ، وزَجَرْتُ نفسي عن الكِبَرِ والْغضَبِ، ونَزَّهتُ نَفسي عنِ الحِقْدِ والبُغْض والخيانةِ، وصُنْتُ لساني عنِ الكَذِبِ والبُهْتانِ والغِيبَةِ والنميمةِ وكلِّ أمرٍ مكرُوهٍ، وأضمَرْتُ في نفسي ألاَّ أبْغيَ على أحدٍ ولا أُكذِّبَ بالبَعْثِ ولا

(١) تواطأ: اتفق.

(٢) يتشاطرا ثمنه: يتقاسماه مناصفة بينهما، فيأخذ كل واحد شطراً.

(٣) المائق: الأحمق في غباوة.

الْقيامة ولا الثَّوابِ ولا العِقابِ وأنْ لا إِلهَ إِلاَّ الله الأَحَدُ الصَّمَدَ[١] وزايَلْتُ[٢] الأشرارَ بِقَلْبي وحاوَلْتُ الجُلوسَ مَعَ الأخْيارَ بجُهْدِي، ورأيتُ الصَّلاحَ ليسَ كمِثْلِهِ صاحِبٌ ولا قَرينٌ ووَجدْتُ مكْسَبَهُ إِذا وَفَّقَ الله وأعانَ يَسيراً ووَجدْتُهُ يدُلُّ على الخيرِ ويُشيرُ بالنُّصْحِ فعْلَ الصَّدِيقِ بالصَّدِيقِ، ووجدْتُهُ لا يَنْقُصُ على الإنْفاقِ منهُ بلْ يزْدَادُ جِدَّةً وحُسْناً ووجدْتُهُ لا خَوْفَ عليهِ منَ السُّلْطانِ أنْ يَغصِبَهُ، ولا منَ الماءِ أنْ يُغرِقَهُ، ولا منَ النَّارِ أنْ تُحْرِقَهُ، ولا منَ اللصُوصِ أنْ تَسْرقَهُ، ولا منَ السِّباعِ وجوارِحِ الطيرِ أن تُمزّقَهُ.

[قصة التاجرُ الخاسر]

ووجدْتُ الرَّجُلَ السَّاهيَ اللاَّهيَ المؤْثِرَ اليسيرَ ينالُهُ في يوْمِهِ ويَعْدَمُهُ في غده على الكثير الْباقي نعيمُهُ، يُصيبُهُ ما أصابَ التَّاجرَ الذي زَعمُوا أنهُ كان لهُ جَوْهَرٌ نفيسٌ فاسْتأجرَ لثَقْبِهِ رجُلاً في اليوْمِ بمائةِ دِينارٍ، وٱنْطلَقَ به إِلى مَنزلهِ لِيَعمَلَ وإِذا في ناحِيَةِ البيتِ صَنْجٌ موْضُوعٌ، فقالَ التَّاجرُ للصَّائغِ: هَلْ تُحْسِنُ ٱللَّعِبَ بٱلصَّنْجِ؟ قال: نعَمْ. وكان بلَعِبِهِ ماهراً فقالَ الرَّجُلُ: دُونَكَ ٱلصَّنْجَ فأسمِعنا ضَرْبَكَ بهِ. فأخذَ الرَّجُلُ الصَّنْجَ ولم يزَلْ يُسْمِعُ التّاجرَ الضّرْب الصَّحيحَ والصَّوْتَ الرَّفيعَ، والتاجرُ يُشيرُ بيدِه ورأْسهِ طرَباً حتى أمسَى، فلمّا حانَ الغرُوبُ قال الرَّجُلُ للتَّاجِرِ: مُرْ لي بالأُجْرَةِ. فقال لهُ التَّاجرُ: وهلْ عَمِلْتَ شيئاً تستحِقُ به الأُجْرَةَ؟ فقال: عَمِلْتُ ما أمَرْتَني به وأنا أجيرُكَ وما ٱسْتَعْملتَني[٣] عَمِلْتُ. ولم يزلْ بهِ حتى استَوْفَى منهُ مائةَ دينارٍ وبقِيَ جوْهرُهُ غيرَ مثْقُوبٍ.

فلمْ أزْدَدْ في الدُّنْيا وشَهواتِها نظراً إِلاَّ ٱزْدَدْتُ فيها زَهادةً ومنها هرَباً

(١) الصمد: من أسماء الله تعالى المقصود في الحوائج.
(٢) زايلت: فارقت.
(٣) استعملتني: أي طلبت مني عمله.

ووَجدْتُ النُّسْكَ هوَ الذي يُمَهِّدُ للْمَعادِ[١] كما يُمهِّدُ الوالدُ لوَلَدِهِ، ووجدْتُهُ هو البابَ المفتُوحَ إلى النَّعيم المُقيم، ووجَدْتُ النّاسِك قدْ تدبَّرَ[٢] فَعْلَتَهُ بالسكينةِ والوَقارِ فشكَرَ وتواضَعَ، وقَنِعَ فاسْتَغْنَى، ورضِيَ فلمْ يَهتمَّ، وخلَعَ الدُّنْيا فنَجا منَ الشرُورِ، ورفَضَ الشَّهوَاتِ فصار طاهراً، وطَرَحَ الحسَدَ فوَجبتْ لهُ المحبَّةُ، وسَخَتْ نفْسُهُ بكلِّ شيءٍ، واسْتعمَلَ العقلَ فأبصَرَ العاقبةَ فأمِنَ النَّدَامَةَ، واعتزَلَ النَّاسَ فَسَلِمَ منهمْ.

[قصة الكلب المخدوع]

ولمْ آمَنْ أنْ تركتُ الدُّنْيَا وأخَذْتُ في النُّسْكِ أنْ أضْعُفَ عنْ ذلك وأكُونَ قد رَفضتُ أعمالاً كنتُ أرجُو عائدَتَها وقدْ كنتُ أعمَلُها فأنْتفعُ بها في الدُّنْيا، فيكُونُ مَثَلي في ذلكَ مثَلَ الكلْبِ الذي مرَّ بنَهْرٍ وفي فيهِ ضِلَعٌ فرَأى ظِلَّها في الماءِ فأهْوَى[٣] ليأخُذَها فأتْلَفَ ما كانَ معهُ ولمْ يجدْ في الماءِ شيْئاً.

فَهِبْتُ النُّسْكَ مهابةً شديدةً وخِفت منَ الضَّجَرِ وقلةِ الصبرِ وأردْتُ الثُّبُوتَ على حالَتي التي كنتُ عليها، ثمَّ بدَا لِي أنْ أقيسَ ما أخافُ ألاَّ أصْبِرَ عليهِ من الأذَى والضّيقِ والخُشونةِ في النُّسْكِ وما يُصيب صاحِبَ الدُّنْيا منَ البلاءِ، وكان عِندِي أنهُ ليسَ شيءٌ منْ شَهواتِ الدُّنْيا ولَذَّاتِها إلاَّ وهوَ مُتحوِّلٌ إلى الأذَى ومُولِّدٌ للْحُزْنِ، فالدُّنيا كالماءِ المِلْحِ الذي لا يَزْدادُ شارِبُهُ شُرباً إلاَّ ٱزْدادَ عطَشاً، وهي كالعظْمِ الذي يُصيبُهُ الكلبُ فيهِ فيجدُ ريحَ اللَّحمِ فلا يزالُ يَطْلُبُ ذلك اللحمَ حتى يُدْمِيَ فاهُ، وكالحِدَأةِ التي تَظْفَرُ بقِطْعةٍ من اللَّحمِ فيَجتمعُ عليْها الطَّيْرُ فلا تزَالُ تدُورُ وتَدْأبُ حتى تُعْيِيَ فإذا تَعِبَتْ ألْقتْ ما معَها، وكالكُوزِ منَ العسلِ الذي في أسْفلِهِ السُمَّ الذي يُدَافُ[٤] فيهِ حلاوةٌ

(١) المعاد: الآخرة.

(٢) تدبر: تفكر.

(٣) أهوى إلى الشيء بيده مدها ليأخذه إذا كان عن قرب فإن كان عن بعد قيل: هوى إليه بغير ألف.

(٤) يداف: يخلط.

عاجلةٌ وآخرُهُ موْتٌ زُعافٌ[١]، وكالبرْقِ الذي يُضيءُ يسيراً فيُطْمِعُ بالنُّورِ ثمَّ يذْهَبُ بغْتةً ويرْجعُ الظَّلامُ، فلمَّا فكرْتُ في هذهِ الأمُورِ رجَعْتُ إلى طلَبِ النُّسْكِ وهزَّني الاشْتِياقُ إليهِ ثم خاصَمتُ نفسي إذْ هيَ في شُرُورِها سارحةٌ وقدْ لا تَثبُتُ على أمْرٍ تعْزِمُ عليه كقاضٍ سَمعَ منْ خَصْم فَحكَم لهُ، فلمّا حضَرَ الخَصْمُ الثاني عادَ إلى الأوَّلِ فقَضَى عليهِ، ثمّ نظَرْتُ في الذِي أُكابدُهُ من احتمالِ النُّسْكِ وضيقِهِ فقلتُ ما أصْغَرَ هذهِ المشَقَّةِ في جانِبِ رَوْحِ[٢] الأبَدِ ورَاحتِه! ثمّ نظَرْتُ فيما تَشْرَهُ إليهِ النفْسُ منْ لَذَّةِ الدُّنْيا فقلتُ ما أمَرَّ هذا وأوْجعَهُ وهوَ يدْفَعُ إلى عذابِ الأبَدِ وأهْوالِهِ، وكيفَ لا يَسْتَحْلي الرَّجُلُ مَرارة قليلةً تَعْقبُها حلاوَةٌ طويلةٌ وكيفَ لا تمُرُّ عليهِ حلاوةٌ قليلةٌ تُعقُبُها مرارَةٌ دائمةٌ، وقلتُ لوْ أنّ رجُلاً عُرِضَ عليهِ أنْ يعيشَ مائةَ سنةٍ لا يأتي عليهِ يوْمٌ واحدٌ إلاَّ بُضِعَ[٣] منهُ بَضْعَةٌ غيرَ أنهُ يُشْرَطُ لهُ أنهُ إذا استوْفَى السنينَ المائةَ نجَا منْ كلِّ ألَم وأذًى وصارَ إلى الأمْنِ والسُّرُورِ كانَ حقيقاً ألاَّ يَرَى تلكَ السّنينَ شيئاً فكيْفَ يأبَى الصبرَ على أيَّام قلائلٍ يَعيشُها في النُّسْكِ وأذَى تلكَ الأيّامِ قليلٌ يُعْقِبُ خيراً كثيراً؟ أوَ ليْسَ أنّ الدُّنْيا بلاَءُ وعذَابٌ والإنسَانُ إنما يَتقلَّبُ في عذابِها منْ حِينِ يكُونُ جَنيناً إلى أن يَستَوْفيَ أيّامَ حياتِهِ؟.

فإنّنا نجدُ في كتُبِ الطّبِّ أنَّ الماءَ يُقَدَّر منهُ الوَلَدُ السَّوِيُّ إذا وقعَ في رَحِمِ المرْأةِ يَختلِطُ بدَمِها ومائِها فيَثْخُنُ ويَغلُظُ ثمّ تَمْخَضُ الريحُ ذلكَ الماءَ والدَّمَ حتى تترُكهُ كالجُبْنِ ثمَّ كالرّائِبِ الثَّخينِ الغليظِ ثمّ تُقسَمُ فيهِ أعْضاءُ الولَدِ لإبَّانِ أيَّامهِ فإنْ كانتْ أنثَى فوَجْهُها قِبَلَ وجْهِ أُمّها، وإنْ كانَ ذَكَراً فرِجْهُهُ قِبَلَ ظَهْرِ أُمّهِ ويداهُ على وجْنتيْهِ، وذَقَنُه على رُكْبتَيْهِ وهوَ مُنقبِضٌ في المَشيمَةِ كأنها صُرَّةٌ مصرُورَةٌ يتنفَّسُ منْ مُتنفسٍ ضيِّقٍ شاقٍّ عليهِ وليْسَ منْ عُضْوٍ إلاّ وهو مُقَمَّطٌ بقِماطٍ وفوْقَهُ حَرُّ البطْنِ وثِقَلُهُ وتحتَهُ ما تحتهُ منَ الظُّلمة

(١) زعاف: فتاك.
(٢) الرَّوْحُ: الراحة.
(٣) بُضِعَ: قُطِعَ.

والضِّيقِ، وهوَ مَنُوطٌ بَمَعاً[١] منْ سُرَّتهِ إلى سُرَّةِ أمّهِ ومنْ ذلكَ المَعَا يمُصُّ ويَقتبسُ الطَّعامَ، فهوَ بهذهِ المنزلةِ في الظُّلمةِ والضّيقِ إلى يومِ وِلادتِهِ، وإذا كانَ إبَّانُ المَخاضِ والوِلادةِ سُلطتْ ريحٌ على رِحَمِ المرأةِ، فتَهَبُ للْجَنينِ قوَّةً يَقْدِرُ بها على الحركة فيَضْرِبُ برأسِهِ قبلَ المَخْرَجِ منْ ضِيقهِ وحرِجه، فإذا وقعَ إلى الأرضِ فأصابَتْهُ ريحٌ أوْ لَمَسَتْهُ يدٌ وجدَ لذلكَ من الألمِ ما يجدُهُ الإنسانُ إذا سُلخَ جلْدُه.

ثمّ هوَ في أنوَاعِ العذابِ إن جاع فليسَ به اسْتِطْعامٌ أو عطش، فليسَ بهِ استِسْقاءٌ أو وَجِعَ، فليسَ به اسْتغاثةٌ معَ ما يَلْقَى من الوَضْعِ والحَمْلِ واللَّفِّ والدَّهْنِ والمسْحِ إنْ أُنِيمَ على ظهره لم يستطعْ تقَلُّباً، ثمّ يَلقَى أصْنافَ العذابِ ما دامَ رَضِيعاً فإذا أفلَتَ منْ عذابِ الرَّضاعِ أُخِذَ في عذابِ الأدَبِ فأُذِيقَ منهُ ألواناً منْ عُنْفِ المُعلّمِ وضَجَرِ الدَّرْسِ وسآمةِ الكتابةِ، ثمّ لهُ منَ الدّواءِ والحمِيّةِ والأسْقامِ والأوْجاعِ أوْفَى نصيبٍ، فإذا أدْرَكَ كانت همَّتُهُ في جَمْعِ المالِ وتَرْبيَةِ الوَلَدِ ومُخاطرَةِ الطَّلبِ والسَّعْيِ والكَدِّ والتعبِ، وهو مع ذلكَ يتقلَّبُ معَ أعدائه الباطِنية اللازِمة لهُ وهي الصفرَاءُ والسَّوْداءُ والريحُ والبَلْغَمُ والدَّمُ والسُّمُّ المميت، والحيةُ اللادغة، . مع الخوف من السباع والهَوَامِّ، مع تقلُّب الفصُولِ من الحرّ والبرْدِ والأمطارِ والرّياحِ، ثمّ أنواعُ عذابِ الهرَمِ لمنْ يَبلُغُه.

فلوْ لمْ يخَفْ منْ هذهِ الأمُورِ شيئاً وكانَ قدْ أمِنَ ووَثِقَ بالسلامةِ منها فلمْ يُفكّرْ فيها لوَجَبَ عليهِ أنْ يكونَ مُفكّراً بالساعةِ التي يحضُرُهُ فيها الموْتُ، فيُفارِقُ الدنْيا فيذْكُرُ ما هوَ نازلٌ به في تلكَ الساعةِ منْ فِراقِ الأَحبَّة والأقارب والمالِ وكلِّ مَضْنُونٍ[٢] به منَ الدُّنْيا معَ الإشرافِ على الهوْلِ العظيمِ بعدَ الموْتِ، فلوْ لمْ يَفْعَلْ ذلكَ لكانَ حقيقاً أنْ يُعَدَّ عاجِزاً مُفرِّطاً

(١) المعا: واحدة الأمعاء. (٢) مضنون: يبخل به.

مُحبًّا للدَّناءَةِ مُستَحِقًّا للَّوْمِ فَمنْ ذا الذي يَعلمُ ولا يَحتالُ لِغَدٍ جَهْدَ حيلَتِهِ ويرْفُضُ ما يَشْغلُهُ ويُلْهيهِ من شهواتِ الدُّنْيا وغرُورِها، ولا سِيَّما في هذا الزَّمان الشَّبيهِ بالصَّافِي وهوَ كَدِرٌ فإنهُ وإنْ كانَ الملِكُ حازماً عظيمَ المَقْدرَةِ رفيعَ الهِمَّةِ بَليغَ الفَحْصِ عَدْلاً مَرْجُوًّا صَدُوقاً شَكُوراً رَحْبَ الذّراعِ مُوَاظِباً على الحُسنَى عالِماً بالنّاسِ مُهتَمًّا بأُمورِ رعيّتِهِ ناظراً في أحوالِهِمْ مُحبًّا للعلم والخَيْرِ والأخْيارِ، شدِيداً على الظَّلَمةِ غيرَ جَبانٍ ولا خفيفِ القيادِ رَفيقاً بالتوْسُّعِ على الرّعيَّةِ فيما يُحِبُّونَ والدَّفْعِ لِما يكْرَهُونَ، فإنَّا قدْ نرَى الزَّمانَ مُدْبِراً بكلِّ مكانٍ حتى كأنَّ أُمُورَ الصّدْقِ قد نُزِعتْ منَ الناسِ، فأصبحَ ما كان عزيزاً فقْدُهُ مَفقُوداً، وما كانَ ضائِراً[1] وُجُودُهُ موجُوداً، وكأنَّ الخيرَ أصبحَ ذابِلاً والشَّرَّ ناضِراً، وكأنَّ الفَهْمَ أصبَحَ قدْ زالَتْ سُبُلُهُ، وكأنَّ الحقَّ ولَّى كَسيراً وأقبلَ الباطِلُ تابِعُهُ، وكأنَّ اتِّباعَ الهوَى وإضَاعةَ الحُكْمِ أصبحَ بالحُكَّامِ مُوَكَّلاً، وأصبحَ المَظلومُ بالحَيْفِ[2] مُقِرًّا والظَّالمُ لنفسهِ مُستطيلاً، وكأنَّ الحِرْصَ أصبحَ فاغِراً فاهُ منْ كلِّ جهةٍ يَتلَقَّف ما قَرُبَ منهُ وما بَعُدَ، وكأنّ الرِّضَا أصْبحَ مجهُولاً، وكأنّ الأشرَارَ يَقْصِدُونَ السَّماءَ صُعوداً، وكانّ الأخْيارَ يُريدُونَ بطْنَ الأرضِ، وأصبَحَتِ المُرُوءَةُ مَقْذُوفاً بها من أعْلَى شَرَفٍ إلى أسفلِ دَرَكٍ[3] وأصبَحتِ الدَّناءَةُ مُكرَّمةً مُمكَّنةً وأصبحَ السُّلطانُ مُنتقِلاً عنْ أهْلِ الفضْلِ، إلى أهْلِ النَّقْص، وكأنّ الدُّنْيا جَذِلةٌ مسرُورةٌ تقُولُ قد غُيِّبَتِ الخيراتُ وأُظْهِرَتِ السيئاتُ.

فلمّا فكَّرْتُ في الدُّنْيا وأمُورِها وأنَّ الإنسانَ هوَ أشرف الخلْقِ فيها وأفضلُهُ، ثمّ هوَ لا يَتقلَّبُ إلاَّ في الشُّرُورِ والهمُومِ عرَفْتُ أنهُ ليسَ إنْسانٌ ذُو عقْلٍ إلاّ وقد أغفَلَ هذا ولم يَعمَلْ لنفسهِ ويَحْتلْ لِنجاتِها فتعَجَّبتُ منْ ذلكَ

(١) ضائراً: مضراً.
(٢) الحيف: الجور.
(٣) الدرك: قعر الشيء.

كلَّ العجَبِ، ثمّ نظرْتُ فإذا الإنْسانُ لا يَمنعُهُ عنِ الاحْتيال لِنفسهِ إلاَّ لذَّةٌ صغيرَةٌ حَقيرةٌ من النّظَرِ والسَّمْعِ والشَّمِّ والذَّوْقِ واللَّمْسِ لعلهُ أنْ يُصيبَ منها الطَّفيفَ أوْ يَقْتني منها اليَسيرَ، فإذا ذلكَ يَشغَلُهُ ويَذْهَبُ بهِ عنِ الاهتمامِ لنفْسِهِ وطلَب النَّجاةَ لها.

[الرجل الذي صار فريسة للتنين]

فالتَمَستُ لِلإنْسانِ مَثلاً فإذا مَثَلَهُ مثَلُ رُجلٍ نجَا منْ خَوْف فيلٍ هائجٍ إلى بئرٍ فتَدَلَّى فيها وتَعلَّقَ بغُصْنينِ كانا على سَمائِها فوَقَعتْ رِجْلاَهُ على شيءٍ في طيِّ البئرِ، فإذَا حيّاتٌ أربعٌ قدْ أخرَجْنَ رُؤُوسَهُنَّ منْ أجْحارِهِنّ ثمّ نظَرَ فإذا في قَعْرِ البئرِ تنِّينٌ فاتحٌ فاهُ مُنتظِرٌ لهُ ليقَعَ فيأخُذَهُ، فرَفَعَ بَصَرَهُ إلى الغُصنيْنِ فإذا في أصلهما جُرَذَانِ أسْوَدُ وأبَيضُ وهُما يَقْرِضانِ الغُصنيْنِ دائِبَيْنِ لا يَفتُرَانِ، فبينما هو في النَّظرِ لأمْرِهِ والاهتمامِ لنَفسهِ إذْ بَصُرَ قريباً منهُ بِخَليّةٍ فيها عسَلٌ فذاقَ العسَلَ فشغلَتْهُ حلاوتَهُ وألْهَتْهُ لذتُهُ عنِ الفِكرَةِ في شيءٍ منْ أمره، وأنْ يلْتمِسَ الخلاصَ لنفْسِه، ولم يذكُرْ أنَّ رِجْليْهِ على حيَّات أرْبعٍ لا يدرِي متَى يقَعُ عليهنَّ، ولم يَذْكُرْ أنَّ الجُرَذَيْنِ دَائبانِ في قَطْعِ الغُصْنينِ، ومتى انْقطَعا وَقَعَ على التِّنينِ، فلم يزَلْ لاهِياً غافِلاً مَشْغولاً بتلكَ الحلاَوَةِ حتى سقطَ في فَمِ التِّنّين فهَلَكَ.

فشبَّهْتُ بالبئر الدُّنْيا المملوءَةِ آفاتٍ وشروراً ومَخافاتٍ وعاهاتٍ وشبَّهْتُ بالحيَّاتِ الأربَعِ الأخلاطَ الأرْبَعَةَ التي في البدَنِ فإنها متَى هاجتْ أوْهاجَ أحدُهما كانتْ كَحُمَةِ[1] الأَفاعِي والسُّمِّ المُميتِ، وشبَّهتُ بالغصنينِ الأجلَ الذي لا بدَّ من انقطاعهِ، وشبَّهتُ بالجُرَذَيْن الأسودِ والأبْيَضِ اللَّيلَ والنَّهارَ اللَّذَيْنِ هما دائِبَان في إفْناءِ الأجَلِ، وشَبَّهتُ بالتِّنينَ المَصيرَ الذي لا

(١) الحمة: سم كل شيء يلدغ أو يلسع.

بُدَّ منهَ، وشبَّهتُ بالعَسل هذهِ الحلاوةَ القليلةَ التي يَنالُ منها الإنسانُ فيَرَى ويَطْعَمُ وَيَسْمَعُ ويَشَمُّ ويَلْمَسُ ويتَشاغَلُ عنْ نفْسهِ ويَلْهُو عنْ شأنِه فيَنسَى أمْرَ الآخرَةِ ويَصُدُّ عنْ سبيلِ قَصْدِهِ.

فحينئذٍ صارَ أمْرِي إلى الرِّضَا بحالِي وإِصْلاحِ ما ٱستطَعتُ إصْلاحَهُ منْ عمَلي لعلّي أنْ أُصادِفَ باقيَ أيّامِي زَماناً أُصيبُ فيهِ دليلاً على هُدَايَ وسلْطاناً على نفْسي وقِوَاماً على أمرِي، فأقَمتُ على هذهِ الحالِ وانْتسَختُ كتُباً كثيرَةً وانصَرَفتُ منْ بلادِ الهِندَ وقد نسختُ هذا الكتابَ.